

عمل المتسام والاداء المسرحي

بقلم الدكتور جهاد الحياط

انتظمت الدبكات الشعبية ذات الايقاعات المنتظمة والالسة
الفلكلورية الشائعة .

وكان النقد الادبي يمارس الصوم الخرساني ،
واعلن فريق من الكتاب بادوات التصميم وافعال الامر
واسماء التفضيل موقفهم ازاء تلك المحاولات .

ووقع السياح ورهطه من الرواد في وهدة التوقيت
بعد ان سابقوه في اول امرهم ، ومضى ربع قرن ولم
يحتفل احد بذكرى اليوبيل الفضي لتلك المحاولات التي
ما زالت قصيدة واحدة ذات نفثه وجدانية واحدة وطابع
رمزي - التزامي ، واعاق بعض النقاد من تطويرها بما
كتبوه عنها ، ولم يهتم الناس بها كثيرا وانما عنوا بتلك
الاقوال التي تلف وتدور وتقع في مهاوي النفعية
والانانية واستغلال النصوص الادبية لتنفيذ المآرب
الشخصية .

وربع قرن ، بالنسبة لما وطأته المخترعات الحديثة
وما اكدته الحرب العالمية الثانية بما خلفته من توقيت
جديد ، فترة طويلة جدا لمحاولات شعرية لم تتعد القصيدة
الواحدة ذات الصفحة الواحدة ، ولم تتطور الى اشكال
جديدة ، وانما كانت تدور في اطار واحد ، واختار بعض
الشعراء عامدين ان يكونوا بين شقي الرحي ، التوقيت
الزمني المكثف ، والانبساط الذي ما زالت تحيا فيه كثير
من مظاهرنا الحضارية فتحدثوا كثيرا عن الالم والضياع
والغربة والمأساة .

وكانت النوازع ترد الفنان بطلبات ارادية من
الخارج ، في كثير من الاحيان ، فمؤلف النغم الراقص
لا يبدأ بكتابه حتى يرى امامه الراقصين بحلهم الزاهية ،
والقصصي لا يبدأ بتأليف قصته حتى يجد ناشرا ،
والكاتب المسرحي لا ينشئ تمثيله الا بعد ان يعثر على
المسرح الملائم والجمهور المتحمس وبائع التذاكر النشيط ،
والخطيب لا يبدأ خطبته حتى يتأكد بان الاكف ستكون
مصففة ، والشاعر لا يمدح حتى تتراعى امامه الاعطية
والجائزة .

أما عمليات الخلق الذاتي المنفصلة في وقت ابداعها
عن المؤثرات الخارجية فقد كانت محدودة ، ولذا لم
تتطور القصيدة الواحدة طيلة ربع قرن .

ولم تخرج هذه القصيدة عن نطاق المحاولة ولم
تقترب كثيرا من العمل الادبي المتكامل بذاته ، فقد كانت
جزءا منه ساعدت الزمنية المنبسطة على تفكيكه وعدم

قضت الحرب العالمية الثانية على الانبساط الزمني
الذي سيطر على كوكبنا الارضي وجعله يحبو طيلة عهود
غابرة بالذعة والسداجة والبساطة والسعادة الغامرة ،
وانخذ الزمن مسارا جديدا ، مكثفا ، متشججا ، يلغسي
في ابعاده من امتد بهم الوقت وانبسط ، وما عاد
المحفظون - التعمساء ، في هذا القرن ، يستطيعون ان
يقولوا في ست ساعات ما يجب ان يقال في ست دقائق ،
والا اصبحوا على هامشه ، وما عاد الرجل ذو الستين
سنة الذي يحمل عقليته طفل ذي ست سنوات برجل هذا
الزمن وواحد ، وما عادت التحية الصباحية التي
تستغرق نصف ساعة هنا ، وايماءة هناك ، الا علامة
متخلفة لا يبررها العطف المتبادل والصدقة المخلصة
وعلاقة الانسان بالانسان ، واصبح من يعيش خمسين
سنة في هذا القرن كمن عاش خمس مئة سنة في
القرون السابقة ، ومن يقرأ خمسين صفحة الآن كمن قرأ
خمس مئة صفحة في الماضي .

وظهر الصراع الزمني واضحا في كل مكان ، انكمش
بعض الناس الى الماضي كرد فعل للرعب الذي اكتسح
الانسان الوديع ، ونفذ بعض الناس الى المستقبل برؤية
واضحة يخططون له نافضين عن كواهلهم اثم الحلم
واستغراق الخيال فاصيبوا بالتشنج الحضاري فقد
فاقوا عصرهم ذكاء ، واصبحت قضية الزمن لعبة هذا
العصر واساس حضارته وتفسيرها لما فيه من مظاهر
متناقضة .

وظهرت - في بلادنا - بعد الحرب العالمية الثانية ،
نتيجة للتوتر الزمني ، محاولات شعرية بسيطة حيية
تلغي نظام الشطرين في البيت الواحد وتنوع القوافي
والتفعيلات في القصيدة ، وكانت ذات طابع فردي طفولي
في اول امرها ، واخذت تبحث عن مضامين جديدة او
تجد نفسها متورطة بموضوعات غريبة ، واشتدت يوما
بعد يوم وفتن بها اصحاب التوقيت المعاصر ، ورفضها
الزمنيون القدامى ، وتجادلوا وتشاتموا ، وتبرز هذه
المحاولات السياح لابس رداء الاستاذية ومسوح الريادة
تتقمصه روح شعرية مجنونة لا تمت بصلة الى الذعة
الانبساطية التي استغرقت قرونا عديدة ، وكان هذا
الشاعر ورهطه يعبرون عن التكثيف الزمني من حيث لا
يدرون ويحاولون بطفولية غامرة ان يمسكوا بخيوط
التشنج الحضاري التي بدأت تصرع الرؤى السعيدة التي

تكامله ، ولذا بقيت تتخبط في محليتها ووجدانها
الالترامي .

وقد دعا بعض النقاد السى وحدة الموضوع في
القصيدة الواحدة ، وربع قرن مليء بالاحداث يدعونا الى
اجتياز وحدة الموضوع الى وحدة العمل الادبي المتكامل
الذي قد يتخذ شكلا مسرحيا أو قصصيا أو ملحيميا
أو يرفض هذه الاشكال جميعا ليبتدع طريقته بنفسه .
انتهى التكسب ، قتلته المخترعات ، وانتهى النواح
والعويل ، فقد شب الانسان مبتعدا عن الدور الطفولي
المتسم بالبكاء والشكوى ، وانتهت القصيدة الواحدة
ذات النفثة الشعورية الواحدة لنحت السير نحو العمل
الادبي المتكامل يبدعه الكاتب أو الشاعر أو الفنان بعيدا
عما سيؤول اليه هذا العمل من نتائج أو ما سيجمع
حواليه من معجبين مصفقين أو حاقدين شامتين .

العمل المتكامل لا يضع امامه هدفا ، وقت انشائه ،
فهو ليس للقراءة أو المسرح أو السينما أو الاوبرا أو
الاناشيد الشعبية ، عليه أن يوجد أولا وبعد ذلك يتخذ له
سبيلا من الاشكال التي ستقرر امكانيته غناء أو تمثيلا
أو قراءة أو اناشيد أو شخصيات فولكلورية معروفة
تدور على السنة الناس من جيل الى جيل .

فكرة بسيطة مأخوذة من أسطورة يونانية كتبها
برنارد شو مسرحية في مطلع هذا القرن أصبحت بعدها
عملا متكاملا معروفا شائعا بين الناس بمستوياتهم
المختلفة ثقافة وفهما وادراكا ، فمن ذلك المثال الذي أحب
ما صنعت يدها « بجماليون » الى عالم باللهجات يتخذ
من فتاة ساذجة تتحدث بلغة تفصح عن ضحالة المنشأ
والوسط - أداة خلق - فيسدر بها في ستة اشهر أن
تتحدث بلغة الطبقة الراقية ولهجتهم المميزة فتصبح منهم
وتدرج بينهم ، عنصر السخرية واضح في المسرحية ،
والفروق بين الطبقات ، والعلاقة بين الخالق والمخلوق ،
وما يتخذه الانسان من وسائل زائفة لحماية نفسه
وطبقته وتأكيد ذاته ، وغير هذا وذلك ، ويفهم الصغير
والكبير والغبي والذكي هذا العمل الادبي البسيط ،
كل بما يتراءى له ، ويشاهد ملايين الناس هذه المسرحية
سنة بعد سنة ولمدة طويلة بلا انقطاع فتصبح جزءا من
حياتهم وتتخذ سبيلا الى العمل السينمائي الناجح ويعني
الناس في أفراحهم واجتماعاتهم الكلمات التي تردت
على لسان تلك الفتاة الساذجة - سيدة المجتمعات الراقية
بعد ذلك ، ويعجبون بالفلسفة البسيطة التي كانت تدور
على لسان أبيها المشرد الصعلوك ، وإذا بأبطال المسرحية
أصدقاء أحياء يعيشون بين الناس ، وإذا بهذا العمل
الادبي المتكامل يفرض نفسه على الاوساط الادبية وغير
الادبية دون أن يفكر برنارد شو حين كتب مسرحيته
بهذه الامور جميعا ، ومات وما زالت مسرحيته تتخذ
أشكالا جديدة سنة بعد أخرى .

وهذا الاستاذ الهادى « نيغوس كازانتزكي »
مدرس الفلسفة المشهور يمتد به الزمن سنة وراء أخرى
وهو قابع وراء كتبه ودراساته ومحاضراته وعالمه المنزمت
وإذا به يستيقظ فجأة برؤية واضحة جديدة فيجد الدنيا
حواليه باردة مملدة وقد تصرمت حياته في ذلك الجو
المقيت ، ولكنه لا يستطيع العودة الى الماضي ولا أن يرجع
شابا يستقبل الحياة من جديد ويعرف جيدا أنه سائر
الى الموت ، فيبدأ بكتابة تشخيص رجلا يتمنى المؤلف أن
يكونه إذا ما عاد به عمره الى السوراء ، وهكذا تنقلب
الحسرة الى عمل أدبي متكامل ، ويأتي « زوربا اليوناني »
ليهب العالم بأقواله وليرى الاشياء يوميا للمرة الاولى
وليهبها بالفاسفات جميعا وليضحك على العقول التي
صنعتها الكتب وزيفتها بعيدا عن الطبيعة البشرية الخلاقة
انصافية ، وانبهر العالم بتلك الاقوال وأصبحت تدور في
أفكار الناس وتسيطر على بعض أعمالهم وإذا بهم يتحدثون
عن هذه الفلسفة الجديدة ويعجبون بهذا الرجل الذي
يستطيع أن يقف وحده في خضم الحياة القاسية
لا يحتاج الى عون من انسان أو تبرير من فلسفة ،
ويذكرون بكثير من الجدل « بوبولينا » صاحبة الاساطيل
الاربعة والقواد العظام الذين كانوا يعرفونها بالشمبانيا ،
وذلك الجد الاعمى الذي يبكي بمرارة لأنه لم يعد يستطيع
أن يرى جمال الفتيات الصغيرات في القرية ، وأولئك
الناس البسطاء في « كريت » الجزيرة التي أحالها زوربا
الى ضرب من الاحلام والاساطير ، وتتخذ القصة سبيلا
الى العمل السينمائي الناجح ، ويحفر الطلبة اسم زوربا
على مناضدهم تعبيراً عن السأم المقيت ، وهكذا استطاع
أستاذ الفلسفة أن يثار لحياته وأن يقدم لنا عملا أدبيا
خالدا .

ولا يمكن أن نعتذر بأن النهضة المسرحية عندنا في
أول أمرها وان الامكانيات محدودة وان الناس بعد لم
يهيأوا لمثل هذا العمل الادبي ، فالكتاب حين ينشئ
لا يفكر في هذه الامور ولا يحاسب الناس والمجتمعات
على ما ستؤدي اليه أعماله الادبية ، فالخلق الفني ليس
عملية بيع وشراء ، وقد يسبق الاديب زمنه وقد يسبق
المسرح بعشرات السنين .

وأعمالنا الادبية المتكاملة ، القديمة والحديثة ،
كثيرة ولكن لم يتح لنا أن نستغلها أو أن نستخرجها من
مظانها لان تلك الاعذار ، ومحدودية الملكة والموهبة ، تقوم
سدا منيعا بيننا وبين الانطلاق ، وأدينا يتعجل الشهرة
دائما ، فالاساطير والقصص القديمة وأخبار الفرسان
والرحالة والجان كثيرة جدا وهي تعمش حية في بطون
التاريخ تنتظر الضربة الساحرة لتخرج السى الناس في
نطاق أهوائهم الشخصية ومشاعرهم الانسانية اذ تهزهم
جميعا فيرقصون وينشدون ويقرأون ويفهمون
ويضحكون ، وهمومنا الحضارية المضطربة الراهنة خير

الغنائية وعن الأشعار الوجدانية المقطعة حواراً وعن المتنفس الوحيد لمأساة الشاعر المعاصر : القصيدة الواحدة المثقلة بالرمز .

وأظن ان على النقاد ان يكفوا عن الدعوة الى وحدة الموضوع وأن يدعوا الى أن يكون النص الادبي نفسه وحدة قائمة بذاتها وعملاً متكاملًا مشخصاً ذا جو أصيل يلف عوالم كثيرة تدور في اطار واحد وتتفرع عنه انجازات كثيرة ، فالعمل العظيم يستغل بعد خلقه وتكامله مواهب الاخرين وقابلياتهم ليس لفهمه وتذوقه فقط وإنما لتطوير أشكاله وتحويرها ونمائها مع الزمن .

وبهذا تصبح المحاولات الشعرية الراهنة طرازا قديماً يتمسك به بعض الناس فيصبحون بمرور الوقت من دعاة القديم ، وتعود مرة أخرى ملهاة القديم والحديث لتشفيل الناس وتلهيهم عن حياتهم الراهنة ، وكما قات سابقاً :

ان زمن القصيدة الواحدة ذات الصفحة الواحدة والنفثة الشعورية الواحدة والعطاء الوجداني - الالتزامي قد ولى ، واننا سائرون حتماً الى الاداء المسرحي والعمل المتكامل .

جلال الخياط

بنغازي - كلية الاداب والتربية

مغين لكثير من الابداعات الفنية ، وقد اصبح للرمز في شعرنا الحديث زهو وكبرياء يتحدى به الشاعر غباء عصره وزمانه ، وقد يلف الرمز أبعاد أكثر من قصيدة واحدة الا انه ما يزال يتيم النفثة الشعورية الواحدة .

ادت القصيدة الواحدة دورها بنجاح واستغرقت أكثر مما يقتضيه ذلك الدور في ربع قرن من الزمن ، وان كانت قد انتهت بشكل من الاشكال فهي ما زالت البذرة الاولى للعمل المتكامل السامق الذي يظلل الناس جميعاً تحت أفيائه ، وستبقى المتنفس الاول لشاعرنا المتورد - المقيد الذي لا يستطيع أن يعبر عن مشاعره بطريقة مباشرة والا فسيفضح نفسه أمام عصره الراهن المنبسط ، والقراء الذين يفهمون هذه القصيدة الواحدة كالصوفية لا يكشفون ولا يتكاشفون ، وهكذا انحسر الشعراء ومريدوهم الى طبقة أكثر من خاصة ، وأصبح للقصيدة الحديثة مناخ فريد من نوعه . حتى بالنسبة للاداب الاجنبية ، ونأت كثيراً وحلقت وصعدت ، وتبدو نهايتها غامضة إذا لم تعد وتبسط بتوقيت حاذق وتتخذ لها أشكالاً من العمل المتكامل .

المفاهيم الشعرية السائدة الان ستبديل حتماً وتتخذ لها أشكالاً غير متماثلة في ربع قرن من الزمن وستعتمد الحدث الدرامي أساساً لها وستبتعد عن

دار الاداب تقدم

يسر « دار الاداب » بيروت ان تعلن لقراءها انها حصلت من عميد الادب العربي

الدكتور طه حسين

على حق نشر مجموعة قيمة من كتبه الاسلامية في مجلد واحد ضخيم بعنوان

الاسلاميات

على هامش السيرة (باجزائه الثلاثة)
مرآة الاسلام - الوعد الحق
الفتنة الكبرى (بجزئها)

وهو يضم الكتب التالية :

صدر حديثاً :

الشمس ١٨ ل ل .